

## تصوّرات المدينة الفاضلة نحو عالمٍ أفضل

### ■ صلاح إسماعيل

المدينة الفاضلة، أو اليوتوبيا، هي مجتمع مثالي لا وجود له، يتصوره الكاتب على نحو أفضل من المجتمع الذي يعيش فيه، والميل إليها هو حُلْمٌ اجتماعي يدفّعه ضيق الواقع ورغبة في طريقة أفضل للحياة. وتطرح كل صور اليوتوبيا الفلسفية والاجتماعية والعلمية والدينية والأدبية أسئلة من قبيل: هل يمكن تحسين الطريقة التي نحيا بها؟ وما عيوب المجتمع أو العالم الذي نعيش فيه؟ وما الطريقة المُثلى لحياة أفضل من التي نحياها؟ وأبرز صور المدينة الفاضلة: جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة للفارابي، ويوتوبيا لتوماس مور، وأطلنطس الجديدة لفرنسيس بيكون، ويوتوبيا حديثة لولز.

وصاغ مور كلمة يوتوبيا utopia من كلمتين يونانيتين هما ou وتعني: لا، و topos وتعني: مكاناً، ومعناها لا - مكان. ولكنه أسقط حرف o وكتب الكلمة باللاتينية. وتداول في فلك اليوتوبيا مفاهيم أخرى مثل اليوتوبية utopianism وهي حلم اجتماعي. وأيوتوبيا أو يوتوبيا إيجابية eutopia or positive utopia، وهي يوتوبيا يقصد

■ أستاذ الفلسفة المعاصرة بجامعة القاهرة.

المؤلف أن يراها القارئ بوصفها أفضل من المجتمع الذي يعيش فيه. وديستوبيا أو اليوتوبيا السلبية dystopia or negative utopia، وهي يوتوبيا يريد المؤلف أن ينظر إليها القارئ بوصفها أسوأ من المجتمع الذي يعيش فيه. وهجاء يوتوبي utopian satire، وهو يوتوبيا يقصد المؤلف أن ينظر إليها القارئ بوصفها نقداً للمجتمع القائم. ومعاداة اليوتوبيا anti-utopia وهي يوتوبيا يريد المؤلف أن ينظر إليها القارئ بوصفها نقداً لليوتوبية. ويوتوبيا نقدية critical utopia، وهي يوتوبيا يقصد المؤلف أن ينظر إليها القارئ بوصفها أفضل من المجتمع المعاصر، ولكن مع مشكلات صعبة ربما يكون المجتمع الموصوف قادراً على حلها وربما لا يكون<sup>1</sup>. وسوف أقدم بعض نماذج اليوتوبيا التي تعطينا منها صوراً واضحة دقيقة.

## 1 - الجمهورية: الحاكم الفيلسوف والطريق إلى العدالة

تتألف بنية المحاور من عشرة كتب؛ يتناول الأول الآراء الشائعة عن العدالة، ويعالج الثاني والثالث والرابع العدالة في الدولة والفرد. ويناقش الخامس والسادس والسابع نُظم الدولة المثلى وحكم الفلاسفة. ويتعلق الثامن والتاسع بتدهور المجتمع والفرد. أما العاشر فيواجه الصراع بين الفلسفة والشعر، ومصير الإنسان وخلود النفس. يدور الحوار في منزل كيفالوس أحد أثرياء أثينا، والشخصيات هي ثراسيماخوس السوفسطائي، وأديمانتوس وجلوكون شقيقا أفلاطون، وكيفالوس وابنه بوليمارخوس، وسقراط المعبر عن رأي أفلاطون.

تبدأ المحاور بجديث عن الكهولة بين سقراط وكيفالوس، سرعان ما يتحول إلى تعريف كيفالوس للعدالة بأنها الصدق في القول والوفاء بالدين، وتعريف بوليمارخوس بأنها مساعدة الأصدقاء والإضرار بالأعداء، ثم يأتي تعريف ثراسيماخوس أن العدالة ليست إلا مصلحة الأقوى. وحقته أنه في

1 - Gregory Claeys and Lyman Tower Sargent, eds. *The Utopia Reader*, New York and London: New York University Press, 1999, p. 2; Fátima Vieira, "The Concept of Utopia," in *The Cambridge Companion to Utopian Literature*, ed. Gregory Claeys. Cambridge: Cambridge University Press, 2010, pp. 3-27.

كل حالة تضع الحكومة القوانين لصالحها؛ فالديمقراطية تضع قوانين ديمقراطية، والملكية تجعلها ملكية، وهكذا الحال في الأنواع الأخرى. وبعد سن هذه القوانين تعلن الحكومات أن ما هو مشروع وعادل بالنسبة إلى رعاياها إنما هو ما فيه صالحها هي ذاتها، وتعاقب من يخالف ذلك بوصفه خارجاً على القانون والعدالة. العدالة في جميع الدول هي صالح الحكم القائم، ولما كان الحكم القائم هو الأقوى، فالعدالة هي مصلحة الأقوى<sup>2</sup>. هذه الرؤية السوفسطائية للعدالة واقعية، وربما تفهم بوصفها تكريساً لوضع قائم يشترع فيه الأقوياء القوانين لصالحهم، ويعاني الضعفاء من الخضوع لها، وربما تفهم بوصفها سبيلاً لتغيير الأوضاع الظالمة.

**يرى أفلاطون أن العدالة قد لا تكون حماية الضعفاء من الأقوياء أو العكس؛ وإنما تناغم بين أفراد المجتمع، واتفاق متبادل بين الفرد والدولة. وإذا كانت العدالة توجد في الفرد بوصفها فضيلة، فإنها توجد في الدولة أيضاً.**

ولكن أفلاطون - الذي ينشد استقرار الأوضاع أكثر من الميل السوفسطائي الديموقراطي إلى التغيير - يرى أن العدالة قد لا تكون حماية الضعفاء من الأقوياء أو العكس؛ وإنما تناغم بين أفراد المجتمع، واتفاق متبادل بين الفرد والدولة. وإذا كانت العدالة توجد في الفرد بوصفها فضيلة، فإنها توجد في الدولة أيضاً. ولما كانت الدولة صورة كبيرة للأفراد ويسهل رؤيتها أولاً؛ فمن الصواب فهم الدولة العادلة أولاً، ثم فهم الفرد العادل بعد ذلك.

وضع أفلاطون منهاجاً للتربية يبلغ به الغاية وهي الوصول إلى الحاكم الفيلسوف، الذي يجتاز مراحل التعليم حتى يصل إلى مشاهدة الخير في ذاته. ومراحل التعليم ثلاث: الأولى هي الموسيقى والتربية البدنية، التربية البدنية لتربية الجسم والدراسات الأدبية لتهديب النفس، والموسيقى تدلُّ على التناغم، وتؤدي إلى حب الجمال. والثانية هي الرياضيات - والعلوم، وأخص

2 - أفلاطون، الجمهورية، ترجمة ودراسة فؤاد زكريا، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، فقرة 338 - 339.



ما تمتاز به دراسة الرياضيات، انطلاقاً من كونها دراسة عقلية مجردة، هي أنها تهيئ النفس للصعود إلى عالم المثل، وتدفع العقل إلى الابتعاد عن عالم المحسوسات والاقتراب من عالم المعقولات.

**الفضائل الأربع للدولة هي: الاعتدال والشجاعة والحكمة والعدالة، وهي ذاتها فضائل الأفراد، مع تأكيد أنها لا تتعلق بأفعال الإنسان الظاهرة؛ وإنما بأفعاله الباطنة. الشخص العادل لا يسمح لأي جزء منه بفعل شيء خارج عن طبيعته، ولا يتعدى أي جزء من أجزاء نفسه الثلاثة - العقل، والحماسة، والشهوة - على وظائف الجزأين الآخرين. والظلم هو تنافر بين هذه الأجزاء، وتعدّي كل جزء على وظائف الآخرين. والفوضى بين هذه الأجزاء هي مبعث الظلم والتهور والجبن والجهل؛ أي كل الرذائل. أما العدالة فتدل على انسجام أجزاء النفس؛ ولما كانت الدولة صورة مكبرة للنفس، فقد قسم أفلاطون طبقات المجتمع إلى ثلاث تمثل قوى النفس. الأولى الممتازة هي طبقة الحكام، وتمثل العقل، ووظيفتها الحكم، والثانية هي طبقة الحراس أو المحاربين، وتمثل الحماسة، ووظيفتها الدفاع والحرب، والثالثة هي طبقة الزراع والصناع، وتمثل الشهوة، ووظيفتها هي الإنتاج.**

وفي المرحلة الثالثة يقع الاختيار على أفضل الذين اجتازوا المرحلتين الأولى والثانية من طبقة الحراس؛ ليكونوا أجدر من غيرهم بدراسة الفلسفة وإدراك الحق والخير عن طريق الجدل، وهؤلاء القادة - الذين تجسد طبائعهم الفضائل الأخلاقية والفكرية - يستحقون الثقة في أن يكونوا هم الحكام في الجمهورية المثالية، وهم الذين سيكفلون لهذه الجمهورية أسباب السعادة والفضيلة على حدّ سواء.

ورأى أفلاطون أن الدولة التي تطمح إلى الحكم المثالي يجب أن تجعل النساء والأطفال مشاعاً في طبقة الحكام والحراس، ويجب أن يتلقى الرجال والنساء فيها البرنامج التعليمي نفسه، ويتقاسموا كل المهام والمناصب، وينبغي أن تتخذ ملوكاً من المواطنين الذين يثبت امتيازهم في الفلسفة والحرب معاً.

وهكذا لا تتحقق الدولة المثالية إلاّ عندما يصبح الفلاسفة ملوكاً، و«ما لم يصبح الفلاسفة ملوكاً في بلادهم، أو يصبح أولئك الذين نسميهم الآن ملوكاً وحكاماً فلاسفة جادين متعمقين، وما لم تتجمع السلطة السياسية والفلسفة في فرد واحد... ما لم يحدث ذلك كله؛ فلن تهدأ - يا عزيزي جلكون - حدة الشرور التي تصيب الدولة، بل ولا تلك التي تصيب الجنس البشري بأكمله»<sup>3</sup>.

ويعرّف أفلاطون الفلاسفة الحقيقيين بأنهم أولئك الذين يعيشون الحقيقة، وهم لا يعيشون الحقيقة من وجه دون آخر، وإنما يعيشونها كلها. وبالإضافة إلى التعلق بالحقيقة يقدم أفلاطون صفات أخرى للفيلسوف، منها

**رأى أفلاطون أن الدولة التي تطمح إلى الحكم المثالي يجب أن تجعل النساء والأطفال مشاعاً في طبقة الحكام والحراس، ويجب أن يتلقى الرجال والنساء فيها البرنامج التعليمي نفسه، ويتقاسموا كل المهام والمناصب.**

الصدق، وكراهية الزيف، وعدم قبول الكذب في أية صورة من صورها، والتعمق في ماهية كل شيء. والفيلسوف هو الشخص الذي تتجه رغباته كلها نحو العلم وما يرتبط به، لا يسعى إلاّ إلى اللذة التي تستمتع بها الروح وحدها، ويدعُ جانباً لذات البدن، وهو معتدل لا يستبد به أيُّ نوع من الجشع، وهو صاحب نفس كبيرة تجعله مترفعاً عن الوضاعة والغرور والجبن، أحاط فكره بالزمان في كليته والوجود في مجموعه، ويتصف - منذ حدثته - بالنزاهة والرفقة وحسن المعاملة، وهو صاحب

ذاكرة قوية وسرعة تعلم، إلى جانب نقاء السريرة والعدل والاعتدال والشجاعة وكرم النفس<sup>4</sup>. وأنت ترى إذن أن الطبيعة الفلسفية إذا تلقت التعليم الملائم؛ فمن الضروري أن تصل بالتدرّج إلى الفضيلة في كل صورها، وفي مقدمتها الفضائل الخلقية والفكرية.

الفيلسوف محب للحقّ، والفاعلية التي يمارسها للوصول إلى الحقيقة هي الجدل (الديالكتيك)، و«رغم أن الديالكتيك أمر عقلي محض؛ فإن سيره

3 - المرجع السابق، 473.

4 - المرجع السابق، 485، 486، 487.

يمثل سير ملكة الإبصار في السجين المتحرر كما وصفناه في تشبيها [يقصد تشبيه الكهف]. فعندما وصل إلى مرحلة التطلع إلى الكائنات الحية خارج الكهف، ثم إلى النجوم، وأخيراً إلى الشمس ذاتها، بلغ أعلى الأهداف في العالم المنظور، كذلك يصل المرء إلى قمة العالم المعقول بالديالكتيك. عندما يكف عن الالتجاء إلى أية حاسة من حواسه، ويبلغ بالعقل وحده ماهية كل شيء، ولا يكف عن سعيه حتى يدرك بالفكر وحده ماهية الخير<sup>5</sup>. وينتهي أفلاطون إلى أن المنهج الديالكتيكي هو وحده الذي يمكن أن يرتفع إلى المبدأ الأول ذاته. وهو وحده القادر بحق على أن يخلص عين النفس من حُفرة الجهل الفادح التي تردت فيها ويرفعها إلى أعلى.

والوسيلة التي يتوسل بها الفيلسوف لبلوغ المعرفة اليقينية أو الوصول إلى المبدأ الأول (الخير) هي عين النفس. ولو لم تكن المعرفة جزءاً من قدرة النفس، فهل تستند إلى الحواس؟ الجواب عند أفلاطون: لا، وذلك لعدة أسباب: أولاً: الحواس لا تضمن اليقين بالنسبة للعالم المحسوس. وثانياً: الحواس - بحكم كونها مادية - لا تلائم معرفة المعقولات أو المثل التي هي مجردة. وثالثاً: المعرفة الحسية دائمة التغير والاختلاف من شخص إلى آخر، بل هي مختلفة لدى الشخص الواحد من حالة إلى أخرى. ولذلك فإن الخبرات الحسية تتأثر بجملة من الأمور التي تؤدي إلى تشويها في خاتمة المطاف مثل تقدّم السن، والمرض، والشهوات. إن المعرفة عند أفلاطون ليست إدراكاً حسيّاً؛ لأن الإدراك الحسي محدود وجزئي. وليست المعرفة ظناً صحيحاً أو خاطئاً؛ لأن الظن يأتي نتيجة للمصادفة، ولا يدرك طبيعة الأمور، وهو عرضة للتغير والتحول، وقد يكون كاذباً، والمعرفة على خلاف كل هذا؛ فهي لا تنشأ نتيجة المصادفة؛ لأنها تصدر عن العقل، وتتعلق بطبيعة الأمور، وهي ثابتة ولا يمكن أن تكون كاذبة، وإنما هي صادقة دائماً.

وأنت ترى أن الدولة العادلة ليست دكتاتورية يحكمها رجل حر والبقية عبيد، وليست دولة أثرياء يكتزون الذهب والفضة ولا تجد البقية ما تقنات به،

5 - المرجع السابق، 532.

وليس دولة ديمقراطية يحكمها أكثر الناس شعبية لا أكثرهم كفاءة. وفي مقابل النظام الأرستقراطي ينقد أفلاطون الأوليجاركية، والديمقراطية، والطفيان.

ومع كل هذا فقد أخذ النقاد يحصون على أفلاطون العيوب، فإذا هم ينتبهون إلى أنه اهتم بطبقة الحكام والحراس، وأهمل طبقة العمال، وإذا هم يلاحظون غياب الحرية العقلية في مدينته، وإذا هم يتشككون أيضاً في فكرته عن التنظيمات الأسرية، وإذا هم - بعد هذا كله - لا يجدون شيئاً عن مراقبة سلطة الحكام.

**وُصف أفلاطون بأنه «يُعدّ - من بعض النواحي - أعظم الثوريين، كما يعد - من نواحٍ أخرى - أكبر الرجعيين»، ولعل الأدق أن نقول: إنه أكبر ممثل للنزعة الشمولية. وسر ذلك هو غياب الحرية في دولته.**

لم يهتم كثيراً بأمور العمال والصناع والتجار؛ لأن وجود الحكومة الصالحة سيجعل كل ما في المدينة جيداً، وفاته أنه لم يمنح الحراس سلطة اقتصادية، وأن المنتجين هم أصحاب هذه السلطة، والنتيجة كما يقول أرسطو: «هي أن تكون هناك دولتان في دولة واحدة، وأن تتبادل الدولتان الكراهية والعداوة»<sup>6</sup>.

زد على ذلك أن الحراس يتمتعون بنوع من السلطة الدينية المقدسة؛ فهم مخلوقون من ذهب، ومفضلون على سائر الناس. وتجد هذه الأسطورة تأييداً في الاعتقاد بأن الملوك هم ممثلو الإله على الأرض. وأدرك أفلاطون أنه يمكن قيام الدولة إذا وضعت الطبقات المنتجة تحت سيطرة طبقة تدين بقوتها للهيمنة العسكرية والدينية<sup>7</sup>.

وُصف أفلاطون بأنه «يُعدّ - من بعض النواحي - أعظم الثوريين، كما يعد - من نواحٍ أخرى - أكبر الرجعيين»، ولعل الأدق أن نقول: إنه أكبر ممثل للنزعة الشمولية. وسر ذلك هو غياب الحرية في دولته؛ لأن الفلاسفة قد

6 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، مراجعة عبد الغفار مكاي، الكويت: عالم المعرفة (225)، 1997، ص 56.

7 - المرجع السابق، ص 57.

يسمحون بقدر من الحرية في أمور مثل التجارة، ولكن في الفن والترفيه والحرية العقلية تراهم قساة لا يعرفون الرحمة، ولا يسمحون بأي تجديد في التعليم. ومهمة الدولة الشمولية هي قمع الحرية، وجعل الفنان أداة في يد الدولة. ولو كانت بلاد اليونان شمولية ما استطاع هوميروس وسوفوكليس وأرسطوفان وحتى أفلاطون أن ينتجوا روائعهم الأدبية<sup>8</sup>. وهذا يجعلنا نأمل من صميم قلوبنا ألا يتحقق أبداً في المستقبل نظام اجتماعي كالذي يصفه أفلاطون في الجمهورية. ولكن غياب الحرية العقلية ليس هو الشيء المنفر في دولة أفلاطون، فالفكرة القائلة بأن كل إنسان قد وُهب القدرة على القيام بمهمة واحدة فقط - مما أدى إلى التقسيم المصطنع للمواطنين إلى منتجين وجنود وحكام - هي فكرة بعيدة كل البعد عن أهون الملاحظات النفسية<sup>9</sup>.

وأنت لا تجد في الجمهورية شيئاً ذا بال عن مراقبة سلطة الحكام. وإذا كان أفلاطون قد استبد به الخوف أن تُفسد الثروة نفوس الحراس؛ فإنه لم يدرك أن السلطة مفسدة، وأن السلطة المطلقة مفسدة مطلقاً<sup>10</sup>.

وحياة الإنسان الاجتماعية في معظم الحضارات تتعارض مع رأي أفلاطون في شيوعية الأطفال والنساء عند مستويات معينة. ويؤكد علماء الاجتماع أن الأسرة لا تعادي الدولة، والنظم الشمولية التي طبقت فكرة أفلاطون تخلت عنها بعد إخفاقها.

## 2- آراء أهل المدينة الفاضلة: من أجل تحصيل السعادة

عالج أبو نصر الفارابي المدينة الفاضلة في عدة مؤلفات مدنية أبرزها «آراء أهل المدينة الفاضلة»، و«السياسة المدنية»، و«الملة»، و«تحصيل السعادة»، و«فصول المدني». وحاول في هذه الكتب التوفيق بين الفلسفة السياسية القديمة - عند أفلاطون وأرسطو خاصة - والإسلام، وأراد أن يقيم مدينته وفقاً لفلسفته الميتافيزيقية والخلقية والسياسية.

8 - المرجع السابق، ص 59 - 60.

9 - المرجع السابق، ص 60.

10 - المرجع السابق، ص 61.



والموضوع الأساسي لكتابات الفارابي المدنية هو السياسة الفاضلة، أي النظام السياسي الذي يوجهه مبدأ تحقيق الكمال الإنساني أو الفضيلة. ويتصور العلم المدني أو الإنساني بوصفه بحثاً في الإنسان، من جهة تميزه عن الموجودات الأخرى، واختلافه عن الوجود الإلهي، ومحاولة لفهم طبيعته النوعية، وما يشكل كماله، والطريقة التي يمكن أن يصل من خلالها إلى هذا الكمال<sup>11</sup>.

وتنقسم بنية «آراء أهل المدينة الفاضلة» إلى قسمين، يتعلّق أولهما بالأصول الفلسفية لفكره السياسي، مثل القول في الموجود الأول وصفاته ونفي

**فالمدينة التي يقصد  
بالاجتماع فيها التعاون  
على الأشياء التي تنال بها  
السعادة في الحقيقة، هي  
المدينة الفاضلة  
والمدينة الفاضلة، تشبه  
البدن التام الصحيح الذي  
تتعاون أعضاؤه كلّها على  
تتميم حياة الحيوان،  
وعلى حفظها عليه.**

الشريك عنه تعالى، وأفكاره هنا منسجمة مع مبادئ الإسلام. ثم الحديث عن الموجودات وكيف صدرت عن الموجود الأول، وأفكاره هنا متأثرة بالأفلاطونية المحدثة. ويتعلّق ثانيهما بما ينبغي أن تكون عليه المدينة، وبدأ بالنظر في احتياج الإنسان إلى الاجتماع والتعاون، وانتهى إلى بيان المدن الجاهلة.

فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة، هي المدينة الفاضلة والمدينة الفاضلة، تشبه

البدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلّها على تتميم حياة الحيوان، وعلى حفظها عليه، وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس وهو القلب، وأعضاءٌ تقرب مراتبها من ذلك الرئيس، وكلُّ واحدٍ منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله؛ ابتغاءً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس، وأعضاءٌ أخرى، ثم هكذا إلى أن تنتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلاً، وكذلك المدينة، أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة

11 - محسن مهدي، الفارابي وتأسيس الفلسفة الإسلامية السياسية، ترجمة وداد الحاج حسن، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان: دار الفارابي، 2009، ص 179.

الهيئات، وفيها إنسان هو رئيس، وآخرون تقترب مراتبهم من الرئيس، وفي كل واحدٍ منها هيئة ومملكة يفعل بها فعلاً يقتضي به ما هو مقصود ذلك الرئيس، وهؤلاء هم أولو المراتب الأول، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء، وهؤلاء هم في الرتبة الثانية، ودون هؤلاء أيضاً من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء، ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهي إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم، فيكون هؤلاء هم الذين يُخدمون ولا يخدمون»<sup>12</sup>.

رئيس المدينة هو مصدر حياة مدينته، ومنزلته منها منزلة القلب من الجسم. وكما أن القلب يتكوّن أولاً، ثم يكون هو السبب في أن يكون سائر أعضاء الجسم، والسبب في أن تحصل لها قواها وأن تترتب مراتبها؛ كذلك رئيس هذه المدينة ينبغي أن يكون هو أولاً، ثم يكون هو السبب في أن تحصل المدينة وأجزاؤها، والسبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها في أن تترتب مراتبها<sup>13</sup>. ونظراً لهذه المكانة الخطيرة لرئيس المدينة والأمة المعمورة؛ فقد اشترط له الفارابي صفات الكمال في الجسم والعقل والخلق والعلم والدين. ولا يمكن أن تصير رئاسة المدينة إلا لمن اجتمعت فيه اثنتا عشرة خصلة قد فُطر عليها: أن يكون تامّ الأعضاء، وأن يكون بالطبع جيّد الفهم والتصور لكل ما يقال له، وأن يكون جيّد الحفظ، وأن يكون جيّد الفطنة ذكياً وأن يكون حسن العبارة، وأن يكون محباً للتعليم والاستفادة، وأن يكون غير شرهٍ على المأكول والمشروب والمنكوح، وأن يكون محباً للصدق وأهله، مبغضاً للكذب وأهله، وأن يكون كبير النفس، وأن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيئة عنده، وأن يكون بالطبع محباً للعدل وأهله، ومبغضاً لل جور والظلم وأهلها، وأن يكون قويّ العزيمة، مقداماً غير خائف، ولا ضعيف النفس<sup>14</sup>.

12 - أبو نصر محمد الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، القاهرة: مؤسسة هنداوي، ص 70.

13 - المرجع السابق، ص 71.

14 - المرجع السابق، ص 75 - 76.

وعندما أدرك الفارابي صعوبة اجتماع هذه الصفات في إنسان واحد، اقترح ست صفات للرئيس الثاني: أن يكون حكيماً، وأن يكون عالماً حافظاً للشرائع والسُّنن والسَّير التي دبرها الأولون للمدينة، ومحتدياً حذوها، وأن يكون له جودة استنباط. وأن يكون له جودة رويّة وقوة استنباط، ويكون متحرّياً بما يستنبطه من ذلك صلاح حال المدينة، وأن يكون له جودة إرشادٍ بالقول إلى شرائع الأولين، وأن يكون له جودة ثبات ببدنه في مباشرة أعمال الحرب<sup>15</sup>.

وأهل المدينة الفاضلة لهم أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها، وأشياء أخرى من علمٍ وعملٍ يخضُّ كلُّ رتبة وكلُّ واحدٍ منهم إنما يصير (كلُّ واحد) في حد السَّعادة بهذين؛ أعني بالمشترك الذي له ولغيره معاً، وبالذي يخضُّ أهل المرتبة التي هو منها، فإذا فعل ذلك كلُّ واحدٍ منهم أكسبته أفعاله تلك هيئة نفسانية جيّدة فاضلة، وكلّما داوم عليها أكثر صارت هيئته تلك أقوى وأفضل<sup>16</sup>.

**جعل أفلاطون من العدالة موضوعاً أساسياً للحكم في دولته، على حين جعل الفارابي من السعادة ذلك الموضوع.** «والسعادة هي الخير المطلوب لذاته، وليست تُطلب - أصلاً - ولا في وقت من الأوقات - ليُنال بها شيءٌ آخر، وليس وراءها شيءٌ آخر يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها».

جعل أفلاطون من العدالة موضوعاً أساسياً للحكم في دولته، على حين جعل الفارابي من السعادة ذلك الموضوع. «والسعادة هي الخير المطلوب لذاته، وليست تُطلب - أصلاً - ولا في وقت من الأوقات - ليُنال بها شيءٌ آخر، وليس وراءها شيءٌ آخر يمكن أن يناله الإنسان أعظم منها»<sup>17</sup>.

ويقرر أن هناك أربعة أشياء إذا تحققت في الأمم وفي أهل المدن؛ حصلت لهم بها السعادة الدنيا في الحياة الأولى، والسعادة القصوى في الحياة الأخرى، وهي الفضائل النظرية، والفضائل الفكرية، والفضائل الخُلُقية، والصناعات العملية»<sup>18</sup>.

15 - المرجع السابق، ص 76 - 77.

16 - المرجع السابق، ص 81.

17 - المرجع السابق، ص 61.

18 - الفارابي، تحصيل السعادة، بيروت: دار ومكتبة الهلال، 1995، ص 25. وانظر أيضاً محمد عبد المعز نصر، «الفارابي ونظم الحكم في القرن العشرين»، في إبراهيم مذكور (تصدير)، =

أما مضادات المدينة الفاضلة؛ فيقسمها الفارابي أربعة أنواع هي: المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدلة، والمدينة الضالة. المدينة الجاهلة هي التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطررت ببالهم، وإنما عرفوا بعض الخيرات المظنونة مثل سلامة الأبدان، واليسار والثروة، والتمتع بالذات. والمدينة الفاسقة هي التي يعلم أهلها كل ما يعلمه أهل المدينة الفاضلة ولكن أفعالهم مثل أفعال أهل المدينة الجاهلة. والمدينة المتبدلة هي التي كانت آراؤها وأفعالها في القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك. والمدينة الضالة هي التي تعتقد في الله ﷻ آراءً فاسدة، ويكون رئيسها الأول ممن أوهم أنه يُوحى إليه من غير أن يكون كذلك<sup>19</sup>.

### 3 - يوتوبيا: الحكومة المثلى للدولة الجديدة

في إطارٍ من الشكل القصصي يقدم توماس مور (1478 - 1535) كتابه «يوتوبيا» (1516). ويصور سفينة تكتشف جزيرة غير معروفة يوجد عليها مجتمع مثالي هي جزيرة يوتوبيا، وتتألف القصة من كتابين، وشخصياتها هي توماس مور، وبطرس جايلز، وروفائيل هيثلوداي. ويعتمد الكتاب الأول على الحوار بين الشخصيات الثلاث، وفي الثاني يتحدث هيثلوداي عن جزيرة يوتوبيا لصديقيه.

تعدُّ «يوتوبيا» إحدى علامات الحركة الفكرية التي سادت في عصر النهضة الأوروبية، وعرفت بالنزعة الإنسانية Humanism؛ لأنها أعلت من شأن الفكر الإنساني، وقاومت جمود العصور الوسطى، وتطلعت إلى عصر يسوده العقل والعدل ومحبة الإنسانية، وأسهمت الظروف الحضارية بنصيب كبير في تكوين يوتوبيا، ومن بينها الاكتشافات الجغرافية التي يشارك فيها بطل القصة هيثلوداي، الذي يظهر جانباً كبيراً من حياة مور وفكره، وتجاربه السياسية.

= أبو نصر الفارابي في الذكرى الألفية لوفاته 950م، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص 236 - 239.

19 - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها، ص 79 - 80.

كما تعكس تأثراً واضحاً باليوتوبيات السابقة مثل جمهورية أفلاطون، ومدينة الله للقديس أوغسطين. وصوّر مور حياة الفقراء المشردين، والجند المدللين، والحكام الفاسدين، وقدم لمواطنيه حياة أفضل كثيراً من الحياة التي كانوا يحيونها في إنجلترا في ذلك الوقت.

في الكتاب الأول يتحدث مور - الذي يجسّد الشخصية الثانية - عن رحلة يقوم بها مع صديقه كثبرت تستول بوصفهما مبعوثين من قبل ملك إنجلترا إلى هولندا لتسوية بعض الأمور، وهناك يلتقي بصديق آخر هو بطرس جايلز، الذي قدّم له ضيفاً هو هيتلوداي الرحالة المثقف، الذي جاب أقطاراً كثيرة، وعرف

**تعدُّ «يوتوبيا» إحدى  
علامات الحركة الفكرية  
التي سادت في عصر  
النهضة الأوروبية، وعرفت  
بالنزعة الإنسانية؛  
لأنها أعلنت من شأن الفكر  
الإنساني، وقاومت جمود  
العصور الوسطى، وتطلعت  
إلى عصر يسوده العقل  
والعدل ومحبة الإنسانية.**

كثيراً من طبائع الشعوب والبلاد، ثم يدور الحديث بين هؤلاء الثلاثة، يتحدث هيتلوداي ويعقب مور وجايلز، وسرعان ما تظهر الفكرة الأساسية وهي: كيف تتحقّق العدالة بين أفراد المجتمع؟ وكيف يسان السلم والأمن بين الدول؟ والجواب - في سياق الحديث عن عقوبة السرقة وانتشار البطالة - هو: «يا عزيزي مور... يبدو لي أنه حيثما وجدت الملكية الخاصة، وكان المال هو المعيار الذي يقاس به كل شيء؛ فيكاد يكون من المستحيل تقريباً أن يسود المجتمع العدل أو الرخاء... الطريق الوحيد لتحقيق الرفاهية للجميع هو تحقيق المساواة في

جميع الأمور»<sup>20</sup>. وهذه عبارة دالة تُعدّ معادلة لعبارة أفلاطون المشار إليها.

ويشكُّ مور في إمكانية تحقيق اشتراكية الحياة، ويأتي الرد: إذا عشت في يوتوبيا؛ فسوف تدرك ذلك حقاً، وهنا يطلب مور من هيتلوداي أن يصف هذه الجزيرة، ويتحقق ذلك في الكتاب الثاني. ويدور الوصف حول جغرافية الجزيرة وحياة سكانها، ونظام الحكم، ونظام العمل والحياة الاجتماعية،

20 - توماس مور، يوتوبيا، طبعة ثانية منقحة، ترجمة وتقديم أنجيل بطرس سمعان، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص 133 - 134.



والأخلاق والزواج والقوانين العامة، وعلاقة يوتوبيا بجيرانها، والحرب، وأخيراً الأديان في يوتوبيا.

وتشبه جزيرة يوتوبيا بلاد الإنجليز في بعض النواحي، وتمتاز عنها في أخرى؛ فمُدنُها جميلة وصحية، حسنة التخطيط، متسعة الطرق، ومبانيها متينة، وتحيط بها الحدائق. بالجزيرة أربع وخمسون مدينة كبيرة جميلة تتكلم جميعاً اللغة نفسها، ولها التقاليد والعادات نفسها، وتسودها القوانين والنظم ذاتها... ولا تبعد مدينة عن الأخرى أكثر من أربعة وعشرين ميلاً... وتوجد في جميع المناطق الزراعية منازل ريفية مزودة بجميع أنواع الأدوات الزراعية، ويسكنها المواطنون الذين يجيئون للإقامة بها بالتناوب. ولا تضم أية أسرة ريفية أقل من أربعين فرداً من الرجال والنساء، والجميع تحت رعاية رب الأسرة وربتها، ولكل مجموعة من ثلاثين أسرة رئيس يُدعى فيلارك، ويعود من كل أسرة سنوياً عشرون من أفرادها، ويُرسَل من المدينة بدلاً منهم عشرون آخرون، وبهذه الطريقة تتجنب البلاد أي خطر قد ينجم عن نقص كمية المواد الغذائية<sup>21</sup>.

ونظام الحكم نيابي يعتمد على الانتخاب، بداية من ممثل الأسر حتى حاكم المدينة، ويشغل الحاكم منصبه طيلة الحياة ما لم يعزل بتهمة الميل إلى الطغيان، أما رؤساء الأسر فينتخبون سنوياً، ويتشاور الحاكم ورؤساء الأسر مرة كل يومين بشأن أمور الدولة. وإذا ظهر خلاف بين أفراد الشعب سرعان ما يتم حله.

والزراعة هي العمل الوحيد الذي يميز الجميع رجالاً ونساءً، وإلى جانب الزراعة يتعلم كل منهم حرفة خاصة به، ويوفر الرؤساء العمل للجميع. أما وظيفة رؤساء المدينة فهي تدبير أمرها بحيث لا يوجد فيها عاطل.

وتقسم كل مدينة إلى أربع مناطق متساوية، وفي وسط كل منطقة سوق لجميع المنتجات، وتحضر كل أسرة منتجاتها إلى مبانٍ بالسوق، ويوضع كل نوع من السلع في مخازن، ومن هذه يأخذ رب كل أسرة ما يحتاج إليه دون دفع مال

21 - المرجع السابق، ص 142، 144.

أو بديل<sup>22</sup>. ويعرّف اليوتوبيون الفضيلة بأنها الحياة تبعاً للطبيعة. ويزكي العقل في نفوس الناس حب القدرة الإلهية وتقديسها، فلها ندين بوجودنا وقدرتنا على السعادة، وهذا يحفزنا على أن نحيا حياة خالية من الهمّ ومليئة بالفرح ما أمكن ذلك، وأن نعاون الآخرين أيضاً لتحقيق الهدف نفسه<sup>23</sup>. ويتمسكون قبل كل شيء بأنواع اللذة العقلية. ويعتقدون بأنها منبع الجزء الأكبر من ممارسة الفضائل والإحساس بالحياة الصالحة. أما عن اللذات التي تتبع من الجسد؛ فيقدمون الصحة عليها جميعاً. وليس لديهم سوى قلة من القوانين؛ لأن الأشخاص الذين رُبوا بهذه الطريقة لا يحتاجون إلّا إلى قليل منها<sup>24</sup>.

**يعرّف اليوتوبيون الفضيلة بأنها الحياة تبعاً للطبيعة. ويزكي العقل في نفوس الناس حب القدرة الإلهية وتقديسها، فلها ندين بوجودنا وقدرتنا على السعادة، وهذا يحفزنا على أن نحيا حياة خالية من الهمّ ومليئة بالفرح ما أمكن ذلك، وأن نعاون الآخرين أيضاً لتحقيق الهدف نفسه.**

ويؤمن أهل يوتوبيا - مع تنوع دياناتهم - بوجود كائن أعلى واحد، خالق الكون كله، ومديره بحكمته. وترك يوتوبوس أمر الدين من دون تحديد، وترك لكل شخص حرية اختيار الدين الذي يريد اعتناقه؛ ولكنه أوصى بكل جدية ألا يبلغ الأمر الدرجة التي تنزل بالشخص عن كرامة الطبيعة الإنسانية، فيعتقد بأن الروح تموت وتنتهي بانتهاك الجسم، أو أن العالم يسير بغير هدًى لا تحكمه قوة إلهية. ونتيجة لذلك فمن المقرر - في نهاية هذه الحياة - أن تنال الرذائل عقابها والفضائل جزاءها<sup>25</sup>.

هناك جوانب كثيرة مشرقة للحياة في يوتوبيا. فالإلغاء الملكية والأجور، والربط العقلاني المتكامل للزراعة مع الصناعة، وتخفيض ساعات العمل،

22 - المرجع السابق، ص 159.

23 - المرجع السابق، ص 175.

24 - المرجع السابق، ص 183، 196.

25 - المرجع السابق، ص 214 - 215. وانظر:

Lyman Tower Sargent, "Five Hundred Years of Thomas More's *Utopia* and Utopianism," *Utopian Studies*, Vol. 27, No. 2, 2016, pp. 184-192.

والفرص الممنوحة للتوسع في الدراسة، ربما يثير إعجابنا. ولكن من الصعب أن نتقبل الجدول الزمني الصارم لأوقات العمل وال فراغ والنوم<sup>26</sup>. ولا نتقبل أيضاً أن يتخلص المريض الميئوس من شفائه من حياته بيده أو بيد غيره. ولا نسيغ عادات الزواج<sup>27</sup>، مثل أن تقدم سيدة وقورة المرأة - سواء كانت عذراء أم سبق زواجها - عارية لراغب في الزواج، كما يُقدّم رجل عاقل راغب الزواج عارياً كذلك أمام الفتاة.

#### 4 - أطلنطس الجديدة: المعرفة قوة

وصف هربرت جورج ويلز صاحب «يوتوبيا حديثة» («أطلنطس الجديدة») بأنها «أجلّ خدمة أداها سيكون للفلسفة»، وأراد بها بكون أن يقدم العلم في صورته الجديدة التي تعتمد على التجريب ومعرفة قوانين الطبيعة من أجل السيطرة عليها، فالمعرفة قوة، في مقابل العلم بمعناه القديم في العصور الوسطى الذي يدور في فلك الألفاظ ولا يغيّر شيئاً من الواقع.

يروى الراوي في هذه اليوتوبيا كيف أقنع مع رفاقه من بلاد بيرو، حيث توجهوا نحو شواطئ الصين واليابان، لكن الرياح أتت بما لا تشتهي السفن، حتى طال عليهم الوقت، وقلّ من خزائهم الزاد، ثم أدركتهم عناية الله فشاهدوا هذه الجزيرة، التي امتاز أهلها برخاء في العيش وغازرة في العلم. وسرعان ما استضيفوا هناك في بيتٍ فريدٍ يطلق عليه «بيت سليمان»، خصص للبحوث العلمية الجديدة، وسمي كذلك تذكيراً للباحثين بأن يدرسوا النبات والحيوان كما حاول سليمان أن يفعل.

أخذ الزائرون إلى بيت سليمان، حيث أُدخلوا على رئيس البيت في غرفة جميلة، وبعد أن حيّاه الزائرون تحية احترام انصرفوا إلّا واحداً منهم أُذن له بالجلوس، ثم أخذ الرئيس يحدثه بالأسبانية عن بيت سليمان، فقال:<sup>28</sup>

26 - ماريا لويزا برنيري، المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ص 129 - 130.

27 - توماس مور، يوتوبيا، ص 191 - 192.

28 - Francis Bacon, *The New Atlantis*, New Zealand: The Floating Press, 2009, pp. 51-67.



«بارك الله فيك يا بني، سأقدم إليك الآن أنفَسَ جوهرة عندي، وذلك لأنني سأصف لك - من أجل محبة الله والإنسان - بيت سليمان. ولكي تكون الصورة التي أقدمها واضحة، سأسلك في تقديمها الترتيب التالي: أولاً: سوف أدلك على الغاية التي قُصد إليها من إقامة هذا البيت، وثانياً: أذكر لك ما هنالك من معدات وأجهزة نستعين بها على أداء بحوثنا العلمية، وثالثاً: أنبئك بمختلف المناصب والمهام التي يشغلها ويؤديها العاملون في هذا البيت، ورابعاً، أبين لك ما ينبغي لنا اتباعه هنا في هذا البيت العلمي من مبادئ وشعائر.

**وصف هربرت جورج ويلز صاحب «يوتوبيا حديثة» «أطلنطس الجديدة» بأنها «أجلّ خدمة أداها ليكون للفلسفة»، وأراد بها ليكون أن يقدم العلم في صورته الجديدة التي تعتمد على التجريب ومعرفة قوانين الطبيعة من أجل السيطرة عليها.**

أما غاية مؤسستنا فهي معرفة علل حدوث الأشياء، وحركاتها الخافية؛ بغية توسيع رقعة سيادة الإنسان، وإنجاز كل الأشياء الممكنة.

وأما المعدّات والأجهزة التي نستعين بها في بحوثنا فهي كالآتي: لدينا كهوف فسيحة وعميقة، تتفاوت فيما بينها سعةً وعمقاً، أما أعماقها فيبلغ ثلاثة آلاف وستمائة قدم، ولقد احتفرنا هذه الكهوف تحت التلال العالية والجبال، فإذا ما أضفت ارتفاع الجبل إلى عمق الكهف؛ وجدت قاع الكهف على بُعد ثلاثة أميال وأكثر، فانظر كم

يبعد هذا القاع عن ضوء الشمس وتيار الهواء، ونسمي هذه الكهوف باسم المنطقة السفلى، ونستخدمها في أعمال كالتبريد وحفظ الأجسام من الفساد، كما نستخدمها في أن تفعل بالعناصر فعلاً شبيهاً بما يتم في المناجم الطبيعية، وبذلك يمكن استخراج معادن جديدة نبتكرها لأنفسنا ابتكاراً، بما نصنعه من تركيبات وتكوينات نضمّ بها العناصر بعضها إلى بعض في صور جديدة، ثم نتركها في أعماق الكهوف لتفعل هناك فعلها على مر السنين. بل إننا لنستخدم تلك الكهوف (وقد يبدو هذا غريباً) في علاج بعض الأمراض، وإطالة الحياة لبعض النُسّاك الذين يختارون العيش هناك، واستيعاب جميع الأشياء اللازمة، والعيش طويلاً جداً، وتعلم عن طريقهم أشياء كثيرة.



وكذلك نستخدم الكهوف في صناعة صنوف من الخزف مثل ما يصنعه أهل الصين في ذلك، لكن مصنوعاتنا أكثر تنوعاً، وبعضها أكثر دقة، ولدينا أيضاً تشكيلة كبيرة من السماد لتخصيب التربة.

وفي مقابل تلك الكهوف أقمنا الأبراج العالية يبلغ أعلاها نحو نصف ميل، وكما حفرنا الكهوف تحت الجبال ليضاف ارتفاع الجبل إلى عمق الكهف، فكذلك أقمنا الأبراج فوق قمم الجبال لتزداد بها ارتفاعاً، وبذلك يصل أعلى الأبراج أكثر من ثلاثة أميال ونطلق على هذه الأبراج اسم المنطقة العليا، ونعد المنطقة التي تقع وسطاً بين العليا والسفلى منطقة وسطى، ونستخدم هذه الأبراج بما يتناسب مع تفاوتها في الارتفاع وتباعدها في الموقع، نستخدمها في عمليات العزل والتبريد والحفظ، ونستخدمها مرصد فلكية نرصد بها مسار الشهب ومهب الريح وسقوط المطر والصقيع، وكما صنعنا في الكهوف فكذلك نصنع في الأبراج، بأن نجعلها ملاذاً للزهاد، وإنما في كلتا الحالتين لنمدهم بما يتطلبون في عزلتهم، لقاء أن نوصيهم بملاحظة ما نريد منهم أن يلاحظوه.

ولدينا بحيرات فسيحة، بعضها مَلِحُ الماء وبعضها عَذْبٌ، وفيها نربي الأسماك والطيور، كما ندفن في قاعها بعض الأجسام الطبيعية، فقد وجدنا أن حالة الجسم الدفين تتغير على نحوٍ ما وهو تحت تربة الأرض المعرضة للهواء، وتتغير على نحوٍ آخر وهو تحت الماء. وعندنا بَرَكٌ أعدناها لتستخلص الماء العذب من الماء الأجاج، بعزلها الملح عن الماء، أو لتحول الماء العذب إلى ماء ملح بحسب ما نريد. وكذلك أقمنا صخوراً وسط البحر، وصنعنا خلجاناً على شاطئه، لنجعل من هذه وتلك معامل للتجارب العلمية، إذا ما كانت تلك التجارب بحاجة إلى هواء البحر وبخّره. كما أن لدينا تيارات مائية قوية الدفع سريعة الجريان، وشلالات، لنستخدم هذه وتلك في إدارة الآلات، أو لإحداث السرعة في حركة الرياح إذا ما أردنا استخدام الرياح السريعة القوية في إدارة الآلات أيضاً.

ولدينا أيضاً عدد من الآبار والنافورات الاصطناعية التي صنعت بطريقة تجعلها قريبة من الينابيع الطبيعية، لتكون لها من الفوائد ما ندبر لها، كما

أعدنا المراسد، ومعامل التفريخ التي نفحص فيها توالد الحشرات والزواحف، ومصحات كيفية الهواء بالدرجة الحرارية التي نحتاج إليها لمختلف صنوف المرضى، وحمامات للاستشفاء.

لدينا أيضاً بساتين وحدائق كبيرة ومنوعة، لا نقصد فيها إلى التمتع بالجمال، قَدَر ما نبغي لها أن تكون معامل تجريبية لزراعة صنوف الشجر والعشب، وفي هذه الحدائق والبساتين تستخلص عينات تجريبية لأنواع العصير والشراب، المستخرجة من النبات والثمر، كما نستعمل تلك المعامل التجريبية في خَلْق أنواع جديدة من النبات عن طريق التهجين، وكذلك نتحكم

إلى بعض الزهر والثمر في توقيت نضجه، فنجعله ينضج قبل أوانه أو بعد أوانه، كما نجعله يحمل محصولاً أوفر وأغزر مما أرادت له الطبيعة أن يحمل، ونزيد من حلاوة الثمر إذا أردنا ذلك ونزيد من حجمه، وننوع درجات الطعم كما نشاء لكل فاكهة، كما ننوع من الشكل واللون والرائحة، زد على ذلك أننا نستخرج من تلك المزارع التجريبية ما يصلح للاستعمال الطبي.

لدينا أيضاً الوسائل التي تنبت نباتات مختلفة عن طريق خلط التربة دون بذور، ووسائل مماثلة لإنبات نباتات جديدة متنوعة تختلف عن المألوفة، ووسائل لتحويل شجرة أو نبات إلى آخر.

لدينا أيضاً حدائق وحظائر لجميع أنواع الوحوش والطيور التي نستخدمها ليس للعرض أو الفرجة فقط، وإنما للتشريح والتجارب أيضاً؛ بحيث يمكننا أن نلقي الضوء على ما يمكن أن يحدث على جسم الإنسان. وإلى جانب ما نجربه من تجارب العقاقير، هناك التجارب نجريها على إحداث التغيرات في أطوال الحيوانات وأحجامها، وفي زيادة إخصابها أو قلتها، وفي تنوع ألوانها وأشكالها ودرجة الفاعلية فيها، فضلاً عن المزاجية بينها مما يخرج صنوفاً جديدة،

... ولدينا بحيرات

فسيحة، بعضها مِلْحُ الماء وبعضها عَدْبٌ، وفيها نربي الأسماك والطيور، كما ندفن في قاعها بعض الأجسام الطبيعية، فقد وجدنا أن حالة الجسم الدفين تتغير على نحو ما وهو تحت تربة الأرض المعرضة للهواء، وتتغير على نحوٍ آخر وهو تحت الماء.



ولا نركن في شيء من هذا كله إلى المصادفات، بل إننا في مجرى التجارب العلمية؛ لنكون على يقين من أي شيء نضيفه إلى أي شيء لينتج لنا الكائنات التي سوف تنشأ.

لدينا أيضاً بركٌ خاصة، حيث نجري تجارب على الأسماك، وكما قلنا من قبل عن الحيوانات والطيور. لدينا أيضاً أماكن لتكاثر وتوليد تلك الأنواع من الديدان والذباب ذات الاستخدام الخاص؛ مثل ما لديكم من ديدان الحرير والنحل. ولن أطيل بك الوقوف عند ما لدينا من معاصر ومخابز ومطاعم، نخرج بها المأكول والمشارب بكل ما يشتهيها المذاق.

ولدينا أيضاً من المعامل العلمية ما تعلق فيه درجات الحرارة وما تهبط، ومن المراد ما يمكننا من دراسة الضوء والإشعاع واللون والشفافية، وكل ما يتصل بهذا الأصل من فروع، كالبحت في الأحجار الكريمة، وفي المنشورات الزجاجية.

ولدينا كذلك من المعامل ما يمكّننا من دراسة الصوت على اختلاف درجاته وتنوع مصادره، ودراسة النطق وأصداء الصوت وانعكاساته، ووسائل تقويته، وطرائق توصيله إلى مسافات بعيدة. ولدينا أيضاً معامل لإجراء التجارب على الروائح، وفي هذه المعامل نفسها تجري التجارب على الطعوم. هذه (يا بني) ثروات بيت سليمان.

وبالنسبة للوظائف والمهام العديدة لزملائنا: يخرج اثنا عشر عالماً إلى البلاد الأجنبية تحت أسماء الدول الأخرى (لأننا نخفي اسم بلدنا) ويجلبون الكتب والملخصات ونماذج التجارب من كل الجهات الأخرى. وهؤلاء نسميهم تجّار النور.

ولدينا ثلاثة يجمعون التجارب من كل الكتب، وهؤلاء نسميهم المُعِدِّين. ولدينا ثلاثة يجمعون تجارب كل الفنون الآلية، وتجارب العلوم الحرة أيضاً، والممارسات التي لم تطبق في الفنون، وهؤلاء نسميهم الرجال السريين.

ولدينا ثلاثة يحاولون إجراء تجارب جديدة إذا كانوا يعتقدون أنها مفيدة، وهؤلاء نسميهم الرواد أو المستكشفين للمناجم.

ولدينا ثلاثة يصنفون التجارب الأربع السابقة في عناوين وجداول، من أجل استخلاص الملاحظات والبهديات منها، وهؤلاء نسميهم المصنّفين. ولدينا ثلاثة يعكفون على تجارب زملائهم ويبحثون في استخلاص الأشياء النافعة منها في حياة الإنسان، وهؤلاء نسميهم فاعلي الخير. أما عن مراسمنا وطقوسنا؛ فلدينا معرضان طويلان وجميلان للغاية: نضع في أحدهما نماذج وعينات من جميع أنواع الاختراعات النادرة والممتازة كأشد ما تكون الندرة والامتياز، ونضع في الآخر تماثيل جميع المخترعين الأساسيين.

... ولدينا ثلاثة يجمعون التجارب من كل الكتب، وهؤلاء نسميهم المُعِدِّين. ولدينا ثلاثة يجمعون تجارب كل الفنون الآلية، وتجارب العلوم الحرة أيضاً، والممارسات التي لم تطبق في الفنون، وهؤلاء نسميهم الرجال السّريين.

لدينا ترانيم وصلوات معينة نقولها كل يوم للرب، ونحمد الله على أعماله الرائعة، وأشكال من الابتهالات، نسأله أن يسبغ علينا نعمته وبيارك في أعمالنا، ويجعلها لأغراض الخير والتقوى.

ولما قال هذا قام، وحييته، ووضع يده اليمنى على رأسي، وقال: «بارك الله فيك يا بني، وبارك الله هذا التقرير الذي قدمته إليك. أعطيك الإذن بنشره لخير الأمم الأخرى؛ لأننا هنا في رعاية الله، أرض غير معروفة».

## 5- والدين تو: السعادة من خلال التحكّم في السلوك الإنساني

كرس بيكون المعرفة لكشف قوانين الطبيعة، وجاء سكينر (1904 - 1990) B. F. Skinner - أحد رواد السلوكية - ليوجه المعرفة نحو اكتشاف العوامل المحددة للسلوك البشري، وقدم يوتوبيا في روايته والدين تو Walden Two، ودافع عن الفكرة من زوايا أخرى في كتابات لاحقة مثل «ما وراء الحرية والكرامة»<sup>29</sup>، واعتقد أنه حالما نكتشف هذه العوامل، يمكن أن نستعملها في

29 - B. F. Skinner, *Walden Two. Including "Walden Two Revisited,"* Indianapolis, Cambridge: Hackett Publishing Company, 2005; B. F. Skinner, *Beyond Freedom and Dignity*, Middlesex, England Penguin Books, 1976.



تحسين المجتمع. وكانت هذه الرواية محاولة لتمثيل مجتمع تحكمه مبادئ السلوكية، وأقيمت عليها بعض المجتمعات ولا يزال بعضها قائماً.

وها هي ذي خلاصة يسيرة جداً لوالدن تو: يتوقف شابان عائدان من الخدمة في نهاية الحرب العالمية الثانية - هما روجرز وستيف - عند مكتب الأستاذ بوريس للسؤال عما إذا كان يعرف شيئاً عن رجل يدعى فرايزر، والمجتمع الجديد الذي أقامه، ويسمى «والدن تو». يتذكر بوريس أن فرايزر كان زميلاً له في الدراسة، وأنه صاحب أفكار متطرفة، ويرسل إليه رسالة تحظى بقبول الزيارة، ويذهب بوريس إلى والدن تو يرافقه زميله كاسيل، وروجرز وصديقه باربرا، وستيف وصديقه ماري، وعند وصولهم يستقبلهم فرايزر، ويتجول معهم على مدار ثلاثة أيام هي مدة الزيارة، ويتدوَّقون طريقة العيش والعمل هناك، ويستمعون إلى كيفية تخطيطه لهذا المجتمع اليوتوبي. يبلغ عدد سكان والدن تو حوالي ألف شخص، تبدو عليهم جميعاً علامات الصحة والسعادة، وهم يعيشون في مساكن جماعية، ويأكلون في أماكن مشتركة، ويربون أطفالهم في حضانة جماعية، ويزرعون ويبنون كثيراً مما يحتاجون إليه. يستمر يوم العمل أربع ساعات فقط أو أقل، لا يتقاضى أحدهم أجراً، ولا شيء في والدن تو يكلف المال.

كيف حققت والدن تو هذه اليوتوبيا؟ الجواب: من خلال علم السلوك؛ ذلك بأن كل ما يجري في والدن تو يقوم على مبادئ السلوكية، وفي مقدمتها أن السلوك البشري يمكن التحكم فيه من خلال الإشراف والتدعيم، ومعالجة احتمالات المكافأة، وبدرجة أقل العقاب. ومنذ سن مبكرة تم تهيئة أعضاء والدن تو بأن يكونوا أعضاء منتجين وسعداء في المجتمع. ونظراً لأن والدن تو مجتمع يستند إلى العلم؛ فهو تجريبي بطبيعته؛ إذا قام دليل على أن ممارسة اجتماعية جديدة ستجعل الناس أكثر سعادة وصحة؛ يتم تنفيذها على الفور ويتم مراقبة عواقبها بعناية.

ويستجيب كل زائر لهذا المجتمع بشكل مختلف: يجده كاسيل بغيضاً، ويجادل فرايزر في جدواه، ويشك بوريس في إمكانية مثل هذه اليوتوبيا، لكن

حجج فرايزر مقنعة، ولا يمكنه تجاهل دليل النجاح أمامه، ويقتنع ستيف وماري بأن هذه هي الحياة الجديرة بالعيش، ويقرران البقاء في والدين تو، ويقتنع روجرز أيضاً، لكن باربرا لا تصل إلى هذه القناعة، ولذلك يغادر معها والدين تو على مضض في نهاية الزيارة. ويقرر بوريس العودة إلى حياته الأكاديمية؛ ولكنه يدرك فجأة - في محطة القطار - أنه يفضل تجربة الحياة في والدين تو، فيعود إليها ويبدأ حياته الجديدة هناك.

وربما لا نجد في يوتوبيا سكنر متعة الحوار الذي نجده عند أفلاطون؛ لأنه لم يحفل بتوليد الأفكار أو تحليل دقائق النفس حين تفكر على النحو الذي كان يفعله سقراط، وإنما استغرق همه كله في إثبات صحة أفكاره السلوكية.

### خاتمة:

أبرز الاعتراضات على اليوتوبيا هو المساواة بين ما هو يوتوبي وما هو مثالي، ويراد بالمثالي هنا الكمال والاكتمال. ولما كانت حياة البشر غير كاملة وقابلة للتغيير؛ فالمساواة هنا تجعل اليوتوبيا تبدو حمقاء أو - على الأقل - غير حكيمة.

أبرز الاعتراضات على اليوتوبيا هو المساواة بين ما هو يوتوبي وما هو مثالي، ويراد بالمثالي هنا الكمال والاكتمال. ولما كانت حياة البشر غير كاملة وقابلة للتغيير؛ فالمساواة هنا تجعل اليوتوبيا تبدو حمقاء أو - على الأقل - غير حكيمة. وقد تترتب على اليوتوبيا مأسى بشرية كما حدث مع الأنظمة الشمولية في القرن العشرين. ويعرف

هذا الاعتراض باسم اعتراض المثالية الخطيرة، وقال به كارل بوبر وأشعيا برلين وفريدريك هايك، وساواوا اليوتوبيا بالسعي إلى الكمال المستحيل، وانتهوا إلى أنها تثير شبح الشمولية. يقول بوبر: «أرى أن ما أسميه يوتوبية نظرية جذابة، وبالفعل جذابة أكثر مما ينبغي؛ لأنني أعدها خطيرة وضارة. وأعتقد أنها تبطل ذاتها، وتؤدي إلى العنف»<sup>30</sup>. وهذا الاعتراض مردود عليه بأن قلة من اليوتوبيات هي التي تدعي المثالية. فلم يدع أفلاطون - الذي

Popper, K. R. *Conjectures & Refutations: The Growth of Scientific Knowledge*, London: Routledge - 30 Classics, 2002, p. 482.



انتقده بوير - أنه يتحدث عن الكمال.<sup>31</sup> وفي أطلنطس الجديدة يتم إرسال العلماء إلى العالم الخارجي وإلى أماكن غير معروفة لاكتشاف ما يكون مفيداً. ويحظى كل ما هو جديد ويؤدي إلى سعادة الناس بالتأييد والتنفيذ في المدن تو، وهذا دليل على إمكانية التغيير.

ويدافع بلوخ في كتابه مبدأ الأمل (في ثلاثة أجزاء)<sup>32</sup> عن الدور المهم الذي تؤديه اليوتوبيا في الفكر السياسي، وينظر إليها بوصفها «الحلم المستقبلي»، وعدم تحققه حتى الآن يوحي بأن اليوتوبيا تعبر عما هو ممكن. ونحن لا نمل من رغبتنا في تحسين الأوضاع؛ لكن هذه الرغبة يجب أن تكون دافعاً إلى تغيير الواقع، ومن ثم ننقل من «اليوتوبيا المجردة» أو المتعالية إلى «اليوتوبيا الواقعية» أو المرتبطة بالواقع الإنساني.

ربط كارل مانهايم بين اليوتوبيا والأيدولوجيا؛ فالقائمون على السلطة أصحاب أيديولوجيا، والراغبون في تغيير الأنظمة أصحاب يوتوبيا. وتمنع الأيديولوجيا القائمين على السلطة من إدراك مواطن الضعف في موقفهم، وتمنع اليوتوبيا أنصار التغيير من إدراك صعوبة تحقيقه. ومن ثم تظهر العلاقة بين اليوتوبيا، والأيدولوجيا؛ بوصفها نتيجة للصراع السياسي. «يعكس مفهوم «الأيدولوجيا» الاكتشاف الذي نشأ من الصراع السياسي؛ أعني أن المجموعات الحاكمة يمكن أن تصبح في تفكيرها شديدة الاهتمام بمصلحتها في أحد المواقف لدرجة أنها بوضوح لم تعد قادرة على رؤية حقائق معينة من شأنها أن تقوض إحساسها بالسيطرة... ويعكس مفهوم التفكير اليوتوبي الاكتشاف المقابل للصراع السياسي، وهو أن مجموعات معينة مظلومة تكون من الناحية الفكرية مهتمة اهتماماً قوياً بتدمير وضعٍ محدّد في المجتمع وتحويله، حتى أنهم - عن غير عمدٍ - لا يرون إلا هذه العناصر في الموقف الذي يميلون إلى إنكاره، ولا يستطيع تفكيرهم أن يشخّص الوضع القائم للمجتمع تشخيصاً صحيحاً،

Lyman Tower Sargent, *Utopianism: A Very Short Introduction*, Oxford: Oxford University Press, - 31 2010, p. 104.

Ernst Bloch, *The Principle of Hope*, Volume One, translated by Neville Plaice, Stephen Plaice - 32 and Paul Knight, Cambridge, Massachusetts: The MIT Press 1996.



ولا يعنيهم على الإطلاق ما يوجد في الواقع؛ وإنما يسعون بالفعل في تفكيرهم إلى تغيير الوضع الموجود»<sup>33</sup>.

عرفت الإنسانية صوراً متنوعة من المدينة الفاضلة، عرضت عليك خلاصة يسيرة لأبرزها، وها هي ذي بعض ملاحظاتي عنها:

1 - تصطبغ كل صورة من صور المدينة الفاضلة بصبغة العصر الذي ظهرت فيه. فإذا كانت الظروف هي؛ الحرب والصراعات بين البشر؛ كان طموح الفيلسوف إلى العدالة من أجل الاستقرار السياسي. تخيل أفلاطون مدينته بعد الحرب التي نشبت بين أسبارطة وبين أثينا، وتركت آثار الدمار على كثير من

**تصطبغ كل صورة من صور المدينة الفاضلة بصبغة العصر الذي ظهرت فيه. فإذا كانت الظروف هي؛ الحرب والصراعات بين البشر؛ كان طموح الفيلسوف إلى العدالة من أجل الاستقرار السياسي.**

المدن، ومن ثمّ فكّر في نظام جديد يضمن للناس العدالة. وإذا كانت الظروف هي غلبة القيم الدينية؛ كان طموح الفيلسوف - الفارابي مثلاً - إلى كمال الأخلاق لدى الحاكم، والسعادة في الدنيا والآخرة. وإذا كانت ظروف العصر هي بزوغ معرفة جديدة، كان طموح الفيلسوف - ليكون مثلاً - هو بناء مؤسسة علمية يكون هدفها معرفة قوانين الكون من أجل خدمة الإنسان وتقدمه. وتجد اهتماماً كبيراً بالعلم الطبيعي والتكنولوجيا في يوتوبيا كامبانيا «مدينة الشمس» (1623)<sup>34</sup>، وتجد

اهتماماً بالعلوم الإنسانية في والدين تو. وإذا كانت سمة العصر هي الاستبداد السياسي واستحواذ طبقات قليلة على ثروات الأمم؛ كانت الدعوة إلى المساواة،

33 - Karl Mannheim, *Ideology and Utopia: An Introduction to the Sociology of Knowledge*, trans. Louis Wirth and Edward Shils, London: Routledge, 1991, p. 36; and see also, Lyman Tower Sargent, "Ideology and utopia: Karl Mannheim and Paul Ricoeur," *Journal of Political Ideologies*, 13, 2008, pp. 263-73; Lyman Tower Sargent, "Ideology and Utopia," in *The Oxford Handbook of Political Ideologies*, edited by Michael Freeden, Lyman Tower Sargent and Marc Stears, Oxford: Oxford University Press, 2013, pp. 439-451.

34 - Tommaso Campanella, *The City of the Sun*, New Zealand: The Floating Press, 2009; and see also Phyllis A. Hal, "The Appreciation of Technology in Campanella's "The City of the Sun"," *Technology and Culture*, Vol. 34, No. 3, 1993, pp. 613-628.



وإلغاء الملكية الخاصة، مور مثلاً - وإذا عانت فئة اجتماعية من أوضاع صعبة؛ جاءت الدعوة إلى تحسين هذه الأوضاع؛ مثلما قدمت الكاتبة المسلمة رقية شوكت حسين يوتوبيا نسوية في كتابين هما «حلم السلطانة» (1905) ويصف أرض النساء، و«الياقوت» (1924) الذي يدور حول الأوضاع الصعبة التي كانت تعانيها المرأة الهندية في ذلك الوقت، ويهدف إلى مساعدة النساء من خلال إقامة مدرسة للبنات، ومستشفى ومأوى للنساء.

2 - تكشف كل صور المدينة الفاضلة عن التمسك بمجموعة من القيم العليا التي يلتقي عندها الأفراد والجماعات في مجتمع واحد، ثم تلتقي عندها كافة الأمم، وتتمثل في طلب الأمن والحريّة والكرامة والعدالة ونحو ذلك، وهي ما يعرف بالمشارك الإلهي أو المؤتلف الإلهي.

3 - فكرة الدين والألوهية والإيمان بإله واحد فكرة أساسية في كل اليوتوبيات، التي تؤكد أيضاً أن الاعتقادات الصحيحة حول الله والكون هي الأساس السليم لبناء نظام سياسي مدني خيّر.

4 - يختلف استقبال العقل لهذه اليوتوبيات باختلاف الظروف الحضارية؛ فالشعوب التي قطعت شوطاً كبيراً في طريق العلم لا تجد شيئاً جذاباً في أطلنطس الجديدة، ولا تجد السعادة في التقدّم العلمي. وما هكذا الحال مع شعوب وأمم أخرى لا تزال تستهلك التكنولوجيا، ولا تسهم في العلم الأساسي أو إنتاج التكنولوجيا بنصيب.

5 - تعكس كل اليوتوبيات مبادئ مهمة في نسيج الوجود البشري؛ مثل مبدأ الرغبة في حياة أفضل، ومبدأ الأمل، وهما عنصران قويان للتوقع والتخطيط للمستقبل. ومهما يكن من أمر اليوتوبيات وما يوجه إليها من نقد؛ فإن لها قيمتها الممتازة؛ من حيث إنها مرآة الأمل والطموح البشري. يرى فيها الناس أنفسهم، فيحبون منها ما يحبون، ويبغضون منها ما يبغضون. يدفعهم حُبُّهم إلى التماس الكمال، ويدفعهم بُغْضُهم إلى التماس الإصلاح.